

التربية على الثقافة الدينية في السياق المدرسي اللبناني المتعدد: من النظرية إلى التطبيق

الأب فادي ضو، رئيس مؤسسة أديان

أصحاب السيادة،

الآباء والإخوة والأخوات الأعزاء،

مقدمة

إنّ الاختلاف الديني حظي باهتمام لافت ومتزايد من قبل الكنيسة الكاثوليكية، منذ المجمع الفاتيكاني الثاني (1965)، وما تلاه من تعاليم وتوجيهات راعوية من البابوات والسلطات الكنسيّة المحليّة. فجاء في مقدّمة البيان حول "علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية" بأنّه : "في عصرنا الذي يتّحد فيه الجنس البشري اتحادًا أوثق، يومًا بعد يوم، وتنمو فيه العلاقات بين الشعوب المختلفة، تتفحص الكنيسة بانتباه بالغ ما هي علاقتها بالديانات غير المسيحيّة"؛ وتعمل الكنيسة على ذلك في ضوء رسالتها التي تقوم على تعزيز الوحدة والمحبة بين الناس والشعوب. وفي هذا السياق، تتالت الدعوات الكنسيّة إلى اعتماد الحوار سبيلًا لتعزيز العلاقة مع الآخرين، والعمل على تطهير الذاكرة من آلام الماضي، وتعزيز العيش معًا واحترام الاختلاف والتضامن، في ظل المواطنة والحرية الدينية.

بناءً على ما تقدّم، نعتبر الرعيّة المدرسية، والتربية الدينية، في الخط الأول للعمل على تحقيق هذه الرسالة، وخاصة في سياق المدارس الكاثوليكية، التي تتميز بين المدارس الخاصة الأخرى، بأنها تحظى بثقة اللبنانيين على اختلاف طوائفهم، وتضمّ بين طلابها نسبة عالية من غير المسيحيين.

تأخذ مسألة التربية الدينيّة في سياق المدرسة اللبنانيّة المتعدّد، ثلاثة أبعاد متكاملة، سوف نستعرضها هنا باختصار، ونقدّم الاقتراحات التي يمكن أن تؤدّي إلى تطوير مقارنة هذه المسألة في المدارس الكاثوليكية، وأن تعزّز دورها الريادي والنموذجي، ضمن المجال التربوي اللبناني، في القطاعين الخاص والعام.

1) الآخر في التربية الدينية المسيحية

إنّ الآخر في المفهوم المسيحي أصبح مع تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني جزءًا من موضوعات الإيمان ومجالاته، ولم يعد محصورًا بكونه علامة للاختلاف والخصوصية، نستعين به للمقارنة أو للمفاضلة بين أدياننا المختلفة. أعني بذلك أنّه لم يعد باستطاعتنا مقارنة الآخر، أي المختلف دينيًّا، من وجهة نظر اجتماعية أو أخلاقيّة فقط، ترتبط حصراً

بتنظيم العلاقة معه ومحبته ومساعدته. بل تدعونا الكنيسة الكاثوليكية أن ننظر إليه باعتباره جزءًا من المساحة الإيمانية ذاتها. فيقول الدستور الرعائي: "بتجسّده، إنّحد ابن الله نوعًا ما بكلّ إنسان." (عدد 22) لذلك اعتبر البابا قداسة فرنسيس، في الإرشاد الرسولي فرح الإنجيل بأنّ أي مقارنة للتعليم المسيحي لا يأخذ بالاعتبار هذا الموضوع يقع في الأسر ويقدم المسيح بدون جسد. (عدد 89) لهذا السبب يدعو البابا المسيحيين إلى عيش "الأخوة المتصوّفة" التي تعرف أن ترى عظمة القداسة في القريب. لا بدّ هنا من الرجوع إلى كلام البابا بندكتوس السادس عشر في إرشاده الرسولي "الكنيسة في الشرق الأوسط"، الذي أطلقه من لبنان سنة 2012، حيث يطلب إعادة النظر في العلاقة الأنثروبولوجية مع الدّين والله. وقول: "نعلم جيّدًا أنّ الحقيقة خارج الله غير موجودة" بحدّ ذاتها لأنّها تصبح صنمًا. فالحقيقة لا يمكن لها أن تنمو إلا في العلاقة مع الآخر، الذي يقودنا إلى الآخر (الله). والذي بدوره أن يُعرّفنا على غنى غيبيّته من خلال أخوتي البشر وفيهم." (عدد 27)

انطلاقًا من هذه المقاربة للآخر كجزء من مسيرتي الإيمانية، لا يعد من الممكن أن أتعامل مع الاختلاف الديني كموضوع خارج عن مسار التنشئة المسيحية والتربية الإيمانية. وهذا يتطلّب بناء مفاهيم التربية المسيحية انطلاقًا من سر الله الواسع هذا وعلاقتي كمسيحي به. وعلى سبيل المثال، في هذا السياق لا يبقى صحيحًا تقديم السيد يسوع المسيح، محور الإيمان المسيحي، بمعزل عن سر حضوره في الكون والآخر وحتى في الأديان الأخرى، والتعامل مع أثر ذلك على نظرتي للآخر ولدينه. أو لا يبقى صحيحًا تقديم الكنيسة على أنّها جماعة المؤمنين المسيحيين وحسب، دون تقديمها كما جاء في المجمع الفاتيكاني الثاني كعلامة وأداة لبناء الوحدة بين البشر وشراكة الجميع مع الله، وتقديم علاقتها الروحية، مع الآخرين، وخاصة مع أبناء الديانتين اليهودية والإسلامية، الذين، كما جاء في المجمع، يتشاركون معنا في الإيمان الابراهيمي.

بناء عليه، نتقدّم بالتوصية الأولى الآتية:

نقترح العمل على تقييم مناهج التعليم المسيحي المعتمدة حاليًا مع الكتب والأدوات التربوية الناتجة عنها، لدراسة صورة "الآخر" المختلف دينيًا فيها، ومدى انسجامها مع ما سبق من عرض لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية في هذا المجال، ووضع إطار تربوي ومنهجي يحدّد كفايات هذا الموضوع وما يرتبط بها من مفاهيم ومهارات ومواقف مطلوبة وفق المراحل العمرية لاعتمادها وادخالها في البرامج، كل وفق مقارنته ومنهجيته الخاصة.

(2) التربية على الثقافة الدينية (religious literacy)

لقد شغلت مسألة التربية على الثقافة الدينية أو التعددية الدينية العديد من المؤسسات الدولية ووزارات التربية في كثير من البلدان، حتى الأكثر علمانية من بينها. وأصبحت تعتبر اليوم المعرفة الثقافية السليمة لأديان العالم جزءًا أساسيًا من ثقافة المتعلّم، وجعلها جزء من "الأميّة الثقافية". وتعدّدت المقاربات لهذه المسألة التربوية، وكثرت المبادرات

في هذا المجال، نذكر منها على سبيل المثال الدليل الذي أعدته منظمة اليونسكو عالمياً، وبنسخة عربية، عن المظاهر الثقافية للأديان. ولقد بادرت بعض المدارس في لبنان إلى اعتماد برنامج ثقافة دينية عامة، مثل Collège Protestant.

لن نتطرق إلى النقاش العلمي المرتبط بهذه المسألة، لضيق الوقت، لكن استناداً إلى دراسة للدكتورة نايل طبارة، في كتاب "التربية على العيش المشترك في ظل مواطنة حاضنة للتنوع الديني" الصادر عن مؤسسة أديان في 2012، سوف نوجز أبرز عناصر التربية على الثقافة الدينية في لبنان.

تقول د. طبارة: إن هدف التربية على التعددية الدينية هو التثقيف بما يخص جميع الأديان والمذاهب، حاضرها وماضيها، بأسلوب موضوعي وسليم. تختلف منهجيتها عن التعليم الديني إذ أنّ أهدافها حياتية لا إيمانية. فهي مادة أكاديمية لا روحية، لا تتدخل في موضوع "الحقيقة"، إنما تأخذ الأديان على أنها حقائق تاريخية، اجتماعية وثقافية. فهي تعرض المظاهر الثقافية والتاريخية للأديان، دون الإنحياز إلى أيّ منها.

وتتضمن التربية على التعددية الدينية في مرحلة أولى تعريف أديان العالم من خلال عرض تاريخها، توسّعها الجغرافي، مبادئها الإيمانية الأساسية، كما والتعرّف على نصوصها وعلى طقوسها وتقاليدها وأعيادها، وعلى المذاهب والفرق المتنوعة ضمن كل ديانة.

في مرحلة ثانية، تأخذ هذه المادة بعين الاعتبار التأثير الديني ليس فقط على الثقافة بل على جوانب حياتية واجتماعية أخرى مثل الفكر والسياسة وحتى الاقتصاد. وتقوم بمقاربة بين الأديان لفهم نقاط تلاقيها كالقيم المشتركة، أو بعض نقاطها الإيمانية المشتركة، أو خبرة الإنسان الدينية العامة (homo religious) بمعزل عن انتمائه الديني الخاص، دون الإنزلاق إلى التبسيط أو التلفيق.

ولا بد، لنجاح هذه الخبرة، أن تأتي هذه التربية بشكل سياعي، يأخذ بعين الاعتبار الصور النمطية، والأفكار المسبقة لدى الطلاب عن الأديان الأخرى، وحتى الذاكرة المجروحة المرتبطة بالصراعات التاريخية التي أخذت أبعاداً طائفية ودينية. فلا يجب أن ينفصل البعد المعرفي هنا عن البعدين المهاري والقيمي في السياق السوسيو-عاطفي للتلميذ.

لقد بادرت في هذا المجال مؤسسة أديان بوضع برنامج ألوان، الذي انطلق في 2007 بناء على طلب مدرسة الناصرة في بيروت، وأصبح اليوم معتمداً في 42 ثانوية رسمية وخاصة في كافة أنحاء لبنان، وهو يُعالج مسألة التربية على التنوع الديني، بالتركيز على الديانتين المسيحية والإسلامية، وربط ذلك في سياق المواطنة الفاعلة (خدمة المجتمع) والحاضنة للتنوع.

كما عملت أديان بالشراكة مع وزارة التربية والتعليم العالي والمركز التربوي للبحوث والإنماء، على وضع المنهج الرديف للتربية على المواطنة الحاضنة للتنوع الديني، والذي صدر في 14 نيسان 2014 بقرار وزاري رقم 8/م/2014.

بناء عليه، نتقدّم هنا بالتوصية الثانية الآتية:

تأليف لجنة في الأمانة العامة للمدارس الكاثوليكية، تدرس مكانة التربية على الثقافة الدينية في سياق ورشة إصلاح المناهج التربوية في لبنان، تعمل على تطوير قدرات الأمانة العامة في هذا المجال، بهدف لعب دور ريادي ومؤثر في هذا المجال، خاصة ضمن اتحاد المؤسسات التربوية الخاصة في لبنان، وبالاعتماد على المبادرات الناجحة الموجودة، بما فيها الكتيّب الصادر عن الاتحاد حول الأعياد الدينية الوطنية، وبرنامج ألوان، وموقع تعددية (قسم وحدة وتنوع عن الأديان وروزنامة أديان العالم)، والمنهج الرديف المذكور.

(3) التربية الإيمانية على قيم الحياة العامة المشتركة

تشارك الجماعات الدينية في مهمة تطوير الحياة العامة وتعزيز الترابط الاجتماعي والسلام داخل المجتمعات وفي ما بينها. فالمؤمن، باسم إيمانه، يحمل مسؤولية اجتماعية، في تحقيق العدل والسلام كقيم الملكوت الذي أعلنه السيد المسيح. لهذا السبب، لا تكتمل لا التنشئة الدينية ولا الثقافة الدينية العامة، إن لم تتوافق مع تربية مكثفة وناجحة على قيم الحياة العامة.

يعتبر البعض على حق بأن هذه هي مهمة "التربية المدنية والتنشئة الوطنية". ولكن من الأهمية بمكان أن تتلاقى التربية الدينية مع التربية المدنية في ترسيخ قيم الحياة العامة في نفوس الطلاب، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات كل مادة. وبذلك يقدم التربية الدينية تأصيلًا إيمانيًا للقيم الإنسانية المرتبطة بالمواطنة والحياة العامة، وتقدم للمتعلم القدرة على الموازنة بين إيمانه والتزامه الوطني. تأخذ هذه المقاربة أهمية خاصة في المجتمعات المتعددة، مثل لبنان، حيث تؤكد من ناحية على المنظومة القيمية المشتركة وطنيًا بين مختلف المكونات والطوائف، ومن ناحية أخرى تقدم للمتعلم خصوصية مقارنة هذه القيم وفقًا لإيمانه الخاص.

لقد عملت مؤسسة أديان على هذه المقاربة مع المؤسسات الدينية الرسمية في لبنان طوال ثلاث سنوات، وأصدرت مؤخرًا برعاية فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية، ديلين، واحد مسيحي وآخر إسلامي، للتربية الدينية على قيم الحياة العامة المشتركة، والذي يسعدنا أن نضعه بتصرف المدارس المهتمة. وقد شارك في وضع هذا العمل من الناحية الكاثوليكية السيدة فيوليت الخوري مسن والأب غايي الهاشم، مع زملاء لهم خبراء ممثلين لسائر الطوائف.

ختامًا وبناء عليه، نتقدّم هنا بالتوصية الثالثة الآتية:

اقترح ورش عمل للقيمين على برامج التنشئة الدينية والمنسقين، والمدرّبين والمعلمين، خلال العام الدراسي 2018/2017 بهدف بلورة استراتيجية مشتركة ضمن المدارس الكاثوليكية، وتقديم المهارات اللازمة للمعلمين لتقديم تنشئة دينية وروحية وروحية منفتحة على التنوع الديني والعيش معًا.